الإمبراطور ديوقليسيانوس وأزمة القرن الثالث الميلادي

الدكتورة: مواس نورة
جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله

– المقدمة: وقع نقاش واسع بين الباحثين حول "إصلاحات الامبراطور ديوقليسيانوس" بعد أزمة القرن الثالث، التي عصفت بالإمبراطورية الرومانية ومدى نجاحها.

ففي الوقت الذي يرى فيه البعض أن الامبراطور نجح الى حد بعيد في المجال الاداري، وأنه تمكن من وقف انهيار الامبراطورية، يرى آخرون أن هذا النجاح كان محدودا والسبب في ذلك عدم تمكنه من معالجة الأزمة الاقتصادية المتمثلة في التضخم وفقدان العملة لقيمتها، وكذا المعضلة الدينية الناجمة عن انتشار المسيحية على حساب عبادة الامبراطور.

حتى نعرف مدى ثقل أزمة القرن الثالث على الامبراطورية الرومانية يكفي الاشارة الى مقولة لـــ: لاكتانس (Lactance) يشير فيها الى تحويل الفلاحين الى أقنان من طرف الملاك الكبار، وأضحوا تابعين للأرض لا يسمح لهم بمغادرتها ولا حتى الزواج خارجها، وحتى مع استمرار مجلس الشيوخ والحكام والموظفين الذين أضحى عددهم أكبر من عدد دافعي الضرائب، لكن كل تلك الوظائف، أصبحت شرفية أمام الامبراطور الذي أصبح السيد الذي لا يخفى سلطته المطلقة.

هذا الوضع ازداد سوء بعد سقوط السيفيين (193–235م) اذ وقعت الإمبراطورية في أزمة لم تعرف لها مثيلا في تاريخها الفوضى العسكرية (235–285م)، وهي التي تعرف بأزمة القرن الثالث، وهي أزمة متعددة الجوانب، تجلت في فوضى عسكرية عارمة، واضطرابات داخلية[1]، تمثلت أساسا في الفوضى العسكرية التي فتتت الامبراطورية بين قادة الجيش المتنافسين على عرش الامبراطورية، والمؤسسات الاقتصادية في أوج

الانحلال والتفكك، تدهور قيمة العملة، التضخم يبلغ الأوج، فضلا عن التوتر الديني الذي أصاب الامبراطورية، وأدى الى انحلال القيم[2].

الى جانب تلك الاضطرابات الداخلية، كانت حدود الامبراطورية عرضة لضربات القبائل الجرمانية من قوط (Goth) والامان (ALAMANS) والفرنجة (France) في الغرب، تلقي بثقلها على الدانوب والراين، وعلى الحدود الشرقية كان الفرثيون (Parthes) أعداء أبديين لا يهادنون الامبراطورية.

هكذا نلاحظ أن الأزمة كانت متعددة الجوانب داخلية وخارجية، ففي الداخل كانت مشكلة السلطة الامبراطورية على أشدها والظروف الاقتصادية في ظل الفوضى العسكرية، كانت تنذر بالخطر، والوضع المالي مع تدهور العملة والتضخم كان يزيد الازمة حدة، فضلا عن ظهور المسيحية وبداية تمكنها من نفوس الناس، فبدأ الصراع الديني يلقي بظلاله داخل الامبراطورية، وبدأ المؤمنون الجدد الفرار من الجندية، وتظهر حركات الاضطهاد ضد هؤلاء الذين سيكون لهم رد فعل قوي، كل هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة تؤدي بدورها الى أوبئة وكوارث طبيعية تزيد الأزمة الداخلية تدهورا[3].

اذا كانت الجبهة الداخلية بالصورة التي قدمناها، فلا شك أنها صورة، تجعل القوى الخارجية، تسعى للاستفادة من هذه الأوضاع بالإغارة على البلاد في محاولة منها السيطرة على الوضع أو على الأقل اقتطاع أجزاء من الامبراطورية، فكان خطر البرابرة الجرمان على الراين والدانوب، والفرثيون على الحدود الشرقية يتربصون بالإمبراطورية في هذه الظروف[4]، رفع الجند ديوقليسيانوس الى منصب "الإمبراطور" سنة **284**م[5].

تولى الامبراطور مهمة ادارة الامبراطورية في ظروف صعبة، فكان عليه في نفس الوقت ان يؤمن حدود الامبراطورية المترامية الاطراف من أسيا الى وسط أوروبا وانجلترا الى مصر وشمال إفريقيا، وهي مناطق كانت خاضعة لشعوب كانت تتربص بالإمبراطورية، كما كان عليه أن يفرض سلطته في الداخل على القادة الذين كانوا على استعداد دائم للعصيان

واعتلاء عرش الامبراطورية، فضلا عن تغلغل الديانة في نفوس الناس وبدأت تشكل تهديدا للوثنية في روما خاصة عبادة الامبراطور[6].

أدرك الامبراطور ان سعة الامبراطورية، وامتدادها في الشرق والغرب، يصعب مهمة ادارتها، وكان حكام مختلف المقاطعات بدورهم يستغلون ضعف الادارة المركزية للاستقلال بمقاطعتهم، فلجأ الامبراطور الى نزع عنهم قيادة الفرق في مرحلة أولى قبل أن يقوم بتغيرات عميقة على مستوى المقاطعات:

1)- التوجه الى تجزئة المقاطعات الموجودة، وزيادة عدد المقاطعات الجديدة (كان عدد المقاطعات سنة 210م أربع واربعين (44) مقاطعة[7]، لتصل الى سبع وخمسين (57) في نفس القرن[8] وتقفز الى مائة وأربعة (104) حوالي سنة 300م[9].

2)- الفصل في كل المقاطعات بين السلطة المدنية التي أسندت الى الرؤساء (Praesides)، والسلطة العسكرية التي كلف بها الأدواق (Doces)[10].

3)- ألغى في الواقع كل المقاطعات السيناتورية وأصبح هو من يعين البروقنصليين وفق رغبته[11].

4)- اخضاع جميع المدن لوضعية المدن الدافعة للضرائب أتبع هذه الاصلاحات على مستوى الأقاليم بإصلاحات مركزية بأن قسم الامبراطورية الى قسمين:

أ) الشرق بنكوميديا كعاصمة تحت إدارته بصفته أغسطس ويساعده قاليريوس بصفته قيصرا يقيم في سيرميوم (Sirmium)[12].

ب) الغرب مقرها ميلانو أسند ادارتها لماكسيميانوس كزميل له بصفة أغسطس، وقنسطونس كلور كمساعد له بصفة قيصر، ويقيم هذا الأخير في ترفس (Treves)[13].

وحتى يمد اصلاحاته الادارية الى أقصاها، أنشأ في كل قسم من القسمين ولايتين:

1)- في الغرب: ولايتا ايطاليا وغالة تدار كل منها من طرف والي البريتوار (Prefet du Pretoire).

2) في الشرق: ولايتا ايليريا والشرق تحت ادارة والي البريتوار بدورهما، ونجد في كل ولاية ثلاث دوقيات (Diocèses) تحت ادارة وكيل (Vicaire)، مثل وكيل افريقيا ووكيل اسبانيا وغيرهما، وكان الهدف من ذلك تقريب الادارة من المواطنين وتسهيل ادارة الامبراطورية والتحكم فيها أكثر[14].

وفي مجال الادارة المركزية دائما، نلاحظ استغناء الإمبراطور عن مجلس الشيوخ، الذي ظل قائما ولكن بشكل "صوري" اذ قام الامبراطور بتجريده من صلاحياته، التي أصبحت "صورية" ومحدودة جدا، فلم يعود يهتم باعتراف مجلس الشيوخ به، فأصبح الامبراطور من يعين القناصل عوضا عن اقتراحها على مجلس الشيوخ كما جرت العادة[15]، وأسند حكم المقاطعات الى طبقة الفرسان وليس للشيوخ كالسابق مما يفسر قول لاكتانس (Lactance) استمرار مجلس الشيوخ لكن دون سلطات[16]. اذ كان الى جانب الإمبراطور مجلس امبراطوري يتشكل من: رئيس المكاتب، وخازن القصر، والكونتان (Les Deux Comts) المكلفان بالمالية، كما يمكن استدعاء مختلف موظفي الادارة المركزية من كونتات ومحضرين قضائيين وموثقين[17].

وكان أعضاؤه من طبقة الفرسان، التي بلغت أوجها تحت حكم ديوقليسيانوس، وهكذا كسب هذه الطبقة التي استخدمها ضد دسائس ومؤامرات مجلس الشيوخ[18].

اذا حاولنا ان نقيم اصلاحاته الادارية، نجد ان اهتداء الإمبراطور الى ما عرف بالحكم الثنائي[19] ثم الرباعي، قد جنب الإمبراطورية الانقلابات العسكرية التي دأبت عليها في عهد الفوضى العسكرية، كما تفادى الثورات المحلية والتمردات بفكرة تقليص من نفوذ حكام المقاطعات التي لجأ الى تجزئتها وفصل سلطات القيادة العسكرية عن السلطة المدنية وكذا اعادة تنظيم الولايات وإجراء المزيد من التقسيمات، عملا على تحقيق أهدافه الرامية الى التحكم أكثر في أرجاء الإمبراطورية[20].

كان المبدأ" هو حكم إمبراطورية غير مقسمة وكل المراسيم والأوامر والقرارات الإمبراطورية تصدر بأسماء الأربعة، وبذلك بقيت الإمبراطورية

موحدة، خاضعة لنفس التشريعات والقوانين، مما يعني أن ذلك التقسيم كان ظاهريا، هدفه منع قيام الجيش بعزل وتنصيب الأباطرة وبالتالي انقاذ الإمبراطورية من الفوضى والانحطاط الذي كان سيؤدي الى زوالها[21].

استطاعت بذلك الامبراطورية الرومانية، بعد أن سارت على ذلك الدرب أن تحقق نتائج ايجابية، في المجال العسكري، فبعد الاستقرار الداخلي، تمكنت بداية من سنة 296م من استرجاع "بريطانيا " من المنشقين، وأصبحت "مقاطعة رومانية" من جديد، وقضى على أمال المغتصبين، وفرض فيها "هيبة الدولة"، كما تم وضع حد للتدخلات الجرمانية في جبهة الراين، التي قضى بها على أزيد من ستين (60) ألفا من الالمان، وفي نفس السنة استطاع اخضاع مدينة "أخيل" (ACHILLE) بالإسكندرية، بعد ثمانية أشهر من الحصار[22].

كما حقق قاليريوس الى جانب ديوقليسيانوس انتصارا كبيرا على الفرس، فأخضعا الكاربنيين[23] عام 295م والسارمنيتيين عام 299م، بعد أن أخضع زميلهما ماكسيميانوس القبائل المورية سنة 298م بعد فشل محاولته الأولى[24].

هكذا تكون هذه الاصلاحات الإدارية قد مكنت الإمبراطورية من استعادة عافيتها، وقضت على الانقلابات العسكرية في مرحلة أولى، ثم مكنت في مرحلة لاحقة القوات التي وزعت على الحدود من صد الأعداء والحد من الاعتداءات الخارجية.

اذا كانت تلك الاصلاحات الإدارية قد حققت الأهداف المرجوة منها، فإن المستوى الذي بلغه "التضخم" الناتج عن أزمة القرن الثالث، كان يستدعى تدخل الدولة، فأصدر الامبراطور ديوقليسيانوس مرسوم 301م المعروف بمرسوم الحد الأقصى للسلع والمنتجات التي تمثل الحاجات الأساسية للمواطن، ففرض حد أعلى موحد للأسعار على كافة السلع داخل الامبراطورية، كما تضمن عقوبات صارمة على المضاربين في السوق السوداء[25].

لقي قرار تحديد أسعار السلع مقاومة من التجار، وعندما حاول الإمبراطور تطبيقه بالقوة، اختفت السلع من الأسواق، مما جعل الدولة،

تتراخى مع الوقت[26]، فإذا كان هدف الامبراطور من ذاك المرسوم هو ضمان توفير الحاجيات الأساسية من السلع للرعايا بأسعار محددة، مع تثبيت الأجور للعاملين في مختلف الحرف والمهن، فإن فاعليته كانت محدودة في المدى الزمني، فلم يكن تأثيره، كما كان منتظرا من طرف الامبراطور[27]، إذ نتج عن ذلك ندرة المواد الغذائية في الاسواق قد تكون ضريبة التكوين والحروب وراء تفاقم هذه الظاهرة، فضلا عن تذبذب الانتاج بعد أزمة القرن الثالث، اذ عرفت الامبراطورية نقصا كبيرا في الانتاج[28] رغم أن الأرض بقيت هي المورد الأساسي.

مثلما لقي مرسوم "الحد الأعلى" مقاومة من التجار الذين أفرغوا الأسواق من السلع، قوبل ايضا مسعاه لتعديل التقدير الأصلي للضرائب، بالهجوم والانتقاد باعتباره نظاما حازما[29] اذ قام بعملية مسح الأراضي، وإحصاء السكان وتقرر إجراء تقدير مختلف أنواع الأراضي على أساس القدرة الانتاجية لكل منها مع حساب عدد الأفراد المشتغلين، فأتاح ذلك تقديرا دقيقا، وأمكن التشديد بصرامة مطلقة في جبايتها، بعد أن جمع بين ضريبة الأرض اليوجوم (IUGUM) وضريبة الرأس (Caput)[30].

بعد هذا النجاح المحدود الذي ساهمت فيه اللامساواة في الملكية العقارية، التي كانت من أقدم المشاكل التي عانى منها المجتمع الروماني، وذلك بسبب عدم تمكن الامبراطور من وقف احتكار "تملك الأرض" من طرف طبقة" الشيوخ بادئ الامر ثم طبقة الفرسان لاحقا، مما مكن هؤلاء من التصدي لنوايا الامبراطور[31].

اذا كانت معظم الضرائب غير المباشرة قد اختفت لكن الضرائب المباشرة أصبحت مرهقة، وكان توجه الدولة الى الضرائب العينية (الاقتصاد الطبيعي)، قد أعطى قيمة قصوى للمواد الزراعية، وقلل الى حد بعيد من قيمة "النقد" في سوق المعاملات، وبذلك أجبر نظام "الجباية" الكثير من الفلاحين على مغادرة أراضيهم والهجرة، بعد أن صار من الصعب عليهم مواجهة الأعباء خاصة بعد سن مبدأ المسؤولية الجماعية في تسديد الضريبة، فإضافة الى الوجوب على الجماعات المحلية ان تدفع عن

أعضائها غير القادرين، أصبح الحكام البلديون (Decurions) مسؤولين كأشخاص وعلى حسابهم على مداخيل الضرائب[32].

الأمر الذي دفع الفلاحين الى هجر أراضيهم، مما زاد الأمر تفاقما، دفع الامبراطور الى اصدار قانون الأصل (Origo) الذي يمنع الفلاح من مغادرة أرضه، وسن مبدأ الوراثة "الالزامية"[33].

تبقى المعضلة المسيحية "هي التي ألبت الإمبراطور، رغم أنه رأى مهادنة أنصار الديانة الجديدة بادئ الامر باعتباره كان يريد أن يعيد للإمبراطورية وحدتها ومناعتها، فضلا عن كونه كان يواجه بعض الصعوبات في التصدي للقبائل الجرمانية على الراين والدانوب، وكذا كبت جماح ملك الساسانيين في الشرق، لكن بعد عشر سنوات تقريبا من المهادنة، وهو يرى النصرانية، يزداد نفوذها وتتقوى، وتدعو الى نبذ "عبادة الامبراطور" والفرار من الجندية، فرأى في ذلك عامل تفكك يشكل خطرا على وحدة الامبراطورية[34].

أصبحت هذه الديانة، تنتشر في مختلف أرجاء الامبراطورية، كانتشار النار في الهشيم، وفرضت نفسها أمام المعتقدات الوثنية السابقة عموما، وعبادة الامبراطور بالخصوص، التي كان المساس بها مساسا بهيبة الامبراطورية وشخص الامبراطور "المقدس"[35].

هاله اذن ما وصلت اليه المسيحية من علو الشأن وراعه انصراف اتباع هذه الديانة عن "عبادة الامبراطور"، فاعتزم محاربة هذا الدين المروع، وأصدر مرسوم سنة 303م، بعد ان يئس من الحلول السلمية في القضاء على الانقسام الديني الذي "مزق" الامبراطورية[36].

حرم بموجب هذا المرسوم اقامة الطقوس الدينية المسيحية على أراضي الامبراطورية، ثم أمر بهدم الكنائس، ومصادرة أملاك المسيحين، وطالب الموظفين بتسليم الكتب المقدسة، وحرقها[37].

لم يتوقف عند هذا الحد، بل أمر بتصفية الجيش والادارة من معتنقي المسيحية، ومعاقبة الممتنعين عن تقديم الأضاحي، منع الاجتماعات والتجمعات المسيحية، فلم يدخر أي جهد للتضيق على أنصار الدين الجديد[38].

كان التعاطف والتآزر بين المسيحيين كبيرا، وكانت روح التضحية ومعاني العدل والتسامح والتآزر الاجتماعي التي تحملها الديانة الجديدة، ان دفعت الكثير من أبناء الطبقات المضطهدة الى الالتحاق بالدين الجديد، واعتناق المسيحية[38].

كان وقع الاضطهاد، أعظم وأفظع، لدرجة جعل الأقباط، يتخذون من سنة 284م، سنة اعتلاء الامبراطور ديوقليسيانوس عرش الامبراطورية بداية للتقويم القبطي[39].

هكذا كانت الدعوة الى نبذ الدين القديم (الوثنية) من طرف المسيحيين، هي دعوة على رأى جوليان (Julien)، الى هدم أحد أركان البناء الأساسي الذي تقوم عليه الامبراطورية في نظر ديوقليسيانوس[40] خاصة أن رفض الدين القديم يعني بصريح العبارة، رفض قدسية "شخص الامبراطور"، لذلك اعتبرت المسيحية من بدايتها حركة مناهضة للنظام الامبراطوري المتوارث، فلهذا لم يكف الامبراطور عن سياسته التي تؤمن بوحدة التنظيم ووحدة الهدف في البناء السديد القوي، عن طرق وضع مبدأ ديني أسمى يدعو الى الالتفاف أكثر حول شخصية الامبراطور[41].

ولتحقيق ذلك تم التركيز على فكرة فلسفية، تعطي الاولوية "للوثنية" التي تتفوق على المسيحية، وهي فكرة "الاسلاف"، التي كانت واحدة من أهم الحجج في رؤى الجماهير الشعبية خلال القرن الثالث، لكن الفكرة لم تؤثر في المسيحيين الذين رأوا في مجيء المسيح بداية حياة جديدة، وبشرى بعالم جديد يسوده الاخاء والتعاون، تنمحي فيه الفوارق[42].

لكن الديانة الجديدة (المسيحية)، كانت قد بلغت مرحلة اللأرجوع، وتمكنت بما تحمله من مبادئ انسانية وروح العدل، وفشل الديانة الوثنية والديانة الرسمية المتمثلة في عبادة الامبراطور، وغموض وتعدد المعتقدات الوثنية التي لم تستطع تحقيق الوئام الاجتماعي، كانت وراء سرعة انتشار الدين الجديد الذي كان يحمل في ثناياها معاني العدل والتسامح والتآزر الاجتماعي[43]، فأقبل عليها الناس خاصة من الطبقات الدنيا وتزايد عددهم بحيث عجزت السلطة المركزية عن التصدي لها.

نلاحظ أن محاولات الاصلاح التي قام بها الامبراطور ديوقليسيانوس قد ترتب عنها ما يلي:

1)- في الجهاز الامبراطوري بداية من القرن الثالث الميلادي أصبح الإمبراطور هو سيد لا يخفي أبدا قوته المطلقة.

ما زال هناك مجلس للشيوخ شكلا، كان هناك حكام (Magistrats)، لكن وظائفهم، أصبحت شرفية، تقتصر على تنظيم الحفلات، أخيرا عدد الموظفين، بدأ يزداد، ليصبح أكبر من عدد الدافعين.

الامبراطور لا يعد شخصا مقدسا فحسب، وإنما كل ما يرتبط به يعد مقدسا، بداية من ديوقليسيانوس أصبح الانحناء أمام الامبراطور، والمحظوظون فقط من يسمح لهم بتقبيل لباسه الارجواني، عندما نتوجه بالكلام اليه بكلمات محددة، كأن نقول هدوءكم، سكينتكم (Tranquillitas tua)، والسكينة، هي آلهة، ويكون ثيودوز الامبراطور المسيحي، هو أول من تخلى على بعض الامتيازات والسلط (السلطات) بالخصوص على لقب "الحبر الأعظم".

2)- تقسيم السلطة:

ظلت السلطة الامبراطورية نظريا غير مقسمة، لكن سعة الأراضي الواجب مراقبتها، تطرح مشكلا عويصا للحكم.

كان ماركوس أوريليوس، قد أعطى مثالا لتقسيم السلطة، باشراك الباهت "لوكيوس فيروس" (L. Verus)، وعمل ديوقليسيانوس على تسوية هذا النظام، بالنظام الثنائي أولا ثم اللجوء الى النظام الرباعي مع نقل عاصمة الإمبراطورية خارج روما.

هكذا تم تقسيم الامبراطورية إقليميا الى حكومتين، أسندت الى زميلين متساويين هما "الأغسطان"، كل أغسطس يساعده قيصر، الذي يخلفه في حالة وفاته بصفة "أغسطس" وله أن يعين قيصرا لمساعدته. وهكذا نجد في الشرق:

ديوقليسيانوس مقره نيقوميديا ويساعده قاليريوس بصفة قيصر ومقره سيرميوم (Sirmium) وفي الغرب ماكسيميانوس بميلانو كمقر وقونسطونس كلور كمساعد ومقره ترفس (Treves).

3)- المجلس الامبراطوري يترأسه الامبراطور ويحضره رئيس المكاتب وخازن القصر (questeurdu palais) والكونتان (les deux Comtes) المكلفان بالمالية، كما يمكن استدعاء مختلف موظفي الادارة المركزية من كونتات ومحضرين قضائيين وموثقين.

4)- بعد أزمة القرن الثالث التي كان خلالها حكام المقاطعات، يظهرون الاستعداد لينصبوا أباطرة، أصبحت السلطة المركزية ترتاب منهم، فنزعت عنهم قيادة القوات، وعملت على تجزئة المقاطعات الى أقصى حد، لذلك عرف القرن الثالث تحولات كبرى:

أ/ الفصل في كل المقاطعات بين السلطة المدنية المسندة للبرايسوس والسلطة العسكرية المسندة للدوق.

ب/ اختفاء المقاطعات السيناتورية، وأصبح الامبراطور هو من يعين الحكام.

ج/ اخضاع كل المدن لوضعية المدن الخاضعة.

د/ زيادة في عدد المقاطعات الجديدة.

هـ/ التوجه الى تجزئة المقاطعات الموجودة: 44 مقاطعة حوالى سنة 210م، سبع وخمسين (57) خلال نفس القرن ومائة وأربع مقاطعات سنة 300م.

5)- قام الامبراطور ديوقليسيانوس في إطار عمله الاصلاحي بتقسيم جديد للإمبراطورية، التي قسمها الى أربعة أقاليم كبرى، تعرف بالولايات هي ولاية الشرق ولاية ايليريا بالنسبة للقسم الشرقي للإمبراطورية وولاية ايطاليا وغالة بالنسبة للقسم الغربي تحت ادارة والي البريتوار من طبقة الفرسان (Praefectus Praetorio).

6)- قسم هذه الولايات بدورها الى اثني عشرة (12) وحدة ادارية تعرف بالدوقيات (Dioceses)، ست (6) منها في الشرق وست (6) في غرب الإمبراطورية، تدار كل منها من طرف وكيل (Vicarius) من طبقة الفرسان، يتبع مباشرة لوالي البريتوار، ويعد همزة وصل بين الإدارة المركزية وحكام المقاطعات.

7)- قام بتقسيم كل دوقية من تلك الدوقيات بدورها الى عدد من المقاطعات (Provincia)، تدار بحسب أهميتها بواسطة بروقنصل من طبقة الشيوخ أو فاحص (Correctore) من الشيوخ أو الفرسان، وأخيرا برايسوس (Praeses) من طبقة الفرسان.

كل هؤلاء لا يتولون غير الادارة المدنية الا استثناء، فقيادة الفرق، كانت تقع على عاتق دوق (Duc) المقاطعة.

8)- لم تعرف روما في العصر الجمهوري والعصر الامبراطوري الاول غير صنفين من المواطنين (النبلاء والعامة)، بينما عرف العصر الإمبراطوري الأسفل فيئة "المعمرين" (Colon).

9)- كان توسيع "حق المواطنة" من طرف الامبراطور كراكلا سنة 212م، بحيث أصبح كل سكان الامبراطورية الأحرار "مواطنون"، هكذا تطورت روما شيئا فشيئا نحو دولة اجتماعية مقسمة الى فئات (نظام الطبقات):

أ/ في قمة المراتب نجد العائلة الامبراطورية، أصحاب النبالة (Nobilissimi).

ب/ فئة الشيوخ: مع ترتيب داخلي أصحاب الشرف (Clarissimi)، أصحاب العظمة (Spectabiles) والمشاهير (Illustres).

ج/ فئة الفرسان: مع ترتيب داخلي أصحاب الكمال (perfectissimi) الشريفون (egregii).

د/ فئة الوضعاء (humiliores).

وقد بلغت فئة (طبقة) الفرسان الذروة في عهد ديوقليسيانوس بدخولهم مجلس الشيوخ في القرن الرابع الميلادي تم تثبيت الوضعاء وراثيا في مهنهم.

10)- المعمرون حولوا الى "أقنان" من طرف الملاك الكبار، وأصبحوا يشكلون طبقة اجتماعية جديدة ، احتفظوا بكل حقوقهم كرجال أحرار لكن ظلوا مرتبطين بالأرض ويمنع عليهم مغادرتها أو حتى الزواج خارجها.

تثبيت كل واحد في وضعه، وكذا أبناؤهم في وضعية الآباء، زاد في تفاقم وضع المعمرين الذين جعلهم تناقص عدد العبيد أكثر صلفا وشدة.

11)- العبيد: في الواقع، بسبب اضطرابات القرن الثالث كان العبيد يتخلصون من العبودية بكثرة بالفرار، وأصبحوا يشكلون مع الفقراء الذين يرفضون القنانة، جماعات من المتسكعين قطاع الطرق.
12)- عرفت المسيحية اضطهادا شاملا تحت حكم دقيوس (250-251م) لكن خاصة تحت حكم ديوقليسيانوس (284-313م)، لدرجة أن الأقباط في مصر والأثيوبيين اتخذوا من سنة 284م وهو تاريخ تولية ديوقليسيانوس حكم الإمبراطورية الرومانية بداية التقويم القبطي.
13)- في المجال الاقتصادي، استعاد العالم الأسيوي في هذه الفترة سيطرته الصناعية، التي كان يتمتع بها أثناء العصر الجمهوري.
14)- أجبرت الدولة على التدخل، لمراقبة عن قرب كل الاقتصاد (توجيهية وتأميم) بالنسبة للصناعة، التدخل لتحديد الأسعار (إصدار الامبراطور لمرسوم الحد الأقصى) سنة 301م.
15)- تضخم حقيقي بداية من القرن الثالث، وضاعف الأباطرة الاصدارات (السك)، لكن النقد فقد قيمته وتراجعت كمية الذهب في العملة الذهبية وغابت الفضة في العملة "الفضية".
16)- اختفت معظم الضرائب غير المباشرة ، لكن الضرائب المباشرة، أصبحت مرهقة، يجب على الجماعات أن تدفع عن أعضائها غير القادرين، فضلا عن ذلك بداية من عهد ديوقليسيانوس أصبحت كل الامبراطورية خاضعة للضريبة العقارية دون استثناء.
17)- أصبح الحكام البلديون (Decuriones) مسؤولين كأشخاص وعلى حسابهم على مداخيل الضرائب.

- الخاتمة:

هكذا نلاحظ أنه رغم المساعي الحثيثة للإمبراطور ديوقليسيانوس للتصدي للفوضى والاضطرابات التي عمت الامبراطورية بعد أزمة القرن الثالث، لكن استطاع الحد من هذه الفوضى وقتيا ونجاح بعض اصلاحاته، لكنها سرعان ما تنهار هذه الاصلاحات على اثر مغادرته "السلطة"، مما يعني أمن الامبراطور. وصل العرش بعد أن بلغ السيل الزبا، ورغم نواياه

الطبيعية لوقف الانهيار، ورغم نجاحه نسبيا في فرملة هذا الانهيار، لكن الداء كان تفشى في جسد الامبراطورية، يصعب استئصاله، وربما كان الاقتصاد المنهار والمسيحية الساطعة العاملين الرئيسيين بالإضافة الى ثقل الجهاز الاداري في تقويض مساعي الامبراطور.

- الهوامش:

1- (Remondon R, 1964 ,p.55; piganiol. A ,1971, p.341)

2- (Homo L, 1940, pp.453.454)

3- (Remondon R., 1964, p.98-99)

4- (Homo L., 1940 ,pp.453.454)

5- (Flavius V.1847 ,chap.14,p.464.)

6- (Runiciman S., 1939, p.20)

7- (Seston W,1946,p.313-333)

8- (Camille J., 1982, p.98)

9- (petit p., 1974, p.26)

10- (Remondor R. 1964,p.128)

11- (Duruy V., 1883, p.564)

12- (petit p., 1974,p.11)

13- (Bergoss H., 1975,p.62)

14- (Seston W.1946, p.312)

15- (Duruy V., 1883, p.569)

16- (Lactance,1954,7)

17- (GUGLIEL M., 1921, p.117)

18- (Mommsen th., 1866,p.41)

19- (Duruy V, 1883,p.530)

20- (Duruy V., 1883 ,p.564)

21- (petit p.,1974 ,p.23)

22- (Rémy B., Betrandy F., 1997,pp.187-188)

23(Remondon R. , 1964, p.98)

24- (Duruy V., 1883 ,p.530)

25- (Mommsen th., 1866, p.391)

26- (العبادي، 1981، ص244)

27- (Chastagnol A., 1982 ,p.180)

28- (Moderan Y., 2006 ,p.178)

29- (تشالز و. ، 2003 ، ص 197)

30- (petit p. ,1974 ,p.31)

31- (Modéran Y. , 2006 , pp.193-194)

32- (Remondor R. ,1964, p.32)

33- (Petit P., 1974, pp. 30-31)

34- (أسد ر. ، 1955، ص 35).

35- (Remy B. Bertrandy F., 1997 ,p.137)

36- (Jonce A. ,1975 ,pp.36.)

37- (ALBERTINI E., 1970 ,pp.371)

38- (اندري ا. جانين ب. ،1958 ،561- 562)

38- (ALBERTINI E, . 1970 ,pp.371)

39- (Vryonis S., 1967,p.23)

40- (ALBERTINI E., 1970,pp.371-372)

41- (جوليان ش. ، 1969 ، ص288)

42- (سفييسكايا إ.س ، 2007 ، ص165)

43- (حارش .م . 1995،ص224)

- المراجع باللغة العربية:

1ـــ أسد ر.، (1955)، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، ج1.

2ـــ اندري إ. جانين ب.، (1958)، تاريخ الحضارات العام روما وإمبراطورتيها، ترجمة فريد داغر، ج2، بيروت.

3ـــ تشارلز و.، (2003)، الامبراطورية الرومانية، ترجمة محمد صقر خفاجة ورمزي عبده جرجس، القاهرة.

4ـــ حارش م.، (1995)، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ الى الفتح الاسلامي، الجزائر.

5ـــ سفينيسكايا إ.س.، (2007)، المسيحيون الاوائل والامبراطورية الرومانية خفايا القرون، ترجمة حسان ميخائيل اسحاق، الطبعة 2، دمشق.

6ـــ العبادي م.، (1981)، الإمبراطورية الرومانية النظام الامبراطوري ومصر الرومانية، دار النهضة العربية، بيروت.

المراجع باللغة الأجنبية:

1. ALBERTINI E., 1922, L'AFRIQUE ROMAINE, Edition : Imprimerie, Oriental Fontana Freres, Alger.

2. Bergas H., (1975) ,le tocsin de la décadence :Leçon de la décadence) . Romaine pour les hommmes d'aujourd'hui .éd .Les Belles Lettres , paris.

3. Cagnat R., (1909) ,«La réorganisation de l'Afrique Sous Dioclitien »,dans les Mélanges de louis HAVET, paris .

4. Camille J.,(1982) « Mélanges et document :de la réforme provinciale attribuée à Dioclitien»,Etude géographique ,Revue Historique ,tome. 19 .

5. Duruy V.,(1883),Histoire des romaines :depuis les temps les plus reculés jusqu'à l'invasion Barbare ,de l'avènement de commode à la mort de Dioclitien ,éd .Libraire Hachette et cie , paris .

6. Ernest(S.), (1959),Histoire du Bas Empire de l'état Romain a L'état Byzantin : (284 – 476), éd. declee de brannier, paris .

7. Enseline w.,(1939) the reformes of Diocletian , Cambridge ancient History,paris.

8. Eutrope,(1843) ,Abrégé de L' histoire Romaine ,Trad .N.A. Dubois ,éd. C.L.F. Panckouke , paris .

9. Flavius V. ,(1847),Histoire d'Auguste;, traductio Nouvelle par M.M.E taille fert,Jules Chenu, ed. :C.L.F.panckouke, paris .

10. Jonce A., (1975),The Decline of Ancient World , London .

11. Homo L. ,(1940)Nouvelle histoire Romain , paris .

12. GUGLIEL M.,(1921), La ruine de la civilisation Antique, ed . Plon, Paris .

13. Lactance,(1954),De la mort des persecuteurs ;Introduction , texte Critique et traduction de J.Moreau, ,Editio :du Cerf ,paris.

14. Madvig J.N,(1883),L'tat Romaine ,Sa constitution et son administration Trad .par CH.Morel,Tome3,éd.Libraire éditeure F.Vieweg, paris .

15 . Modéran Y.,(2006),L'empire romain tardif 235-395ap.J.C , Ellipses 2e éd. Marketeting S.A , paris .

16. Mommsen th., (1866)« Mémoires sur les provinces Romane et sur les listes qui nous en sont parvenus depuis la division fait par Dioclitien jusqu'au Commencement du Vème siècle » Dans la revue Archéologique , paris .

17. Petit P. , (1974) ,Histoire Generale De L'empire Romain, Le Bas Empire (284-395), ed. de seuil , paris .

18. Remondon R. ,(1964) La crise de L'empire romain ,du marc Aurel,à Anastase ,éd . P.U.F., paris .

19. Remy B., Bertrandy F.,(1997) L'Empire romain de Pertinax à Constantin, (192 -337 après J. c) ,aspects politiques , administratifs et religieux, 2ed , paris.

20. Runciman S.,(1939) , la Civilisation byzantine 330-1453 , tra. E.J levy , payot, paris ,

21. Seston W.,(1946)Dioclétien et la tétrarchie ,(Guerres et réformes 284-300),t.I, éd. De Boccard , paris .

22. Vryonis ,S.,(1967)Byzantium and Europe, London.